BETWEEN EDEN AND ARMAGEDON
The future of world religions, violence and peacemaking
By Marc Gopen, New York, Oxford University, 2001, PP312

ما بين جنة عدن وجحيم ارمجدون

مستقبل أديان العالم، العنف، وصناعة السلام

عبد الرحمن النقيب*

والمؤلف هو أستاذ مساعد بمركز الدراسات الاستراتيجية والعالمية بواشنطن كما يدرس بكلية فلتشر للدبلوماسية والقانون بجامعة تفتس وبرنامج " فض الصراع" بجامعة المونيت.

يدور الكتاب حول خيار العالم بين السلام الذي يرمز لـــه الكاتب بجنة عدن، وخيار الحرب والدمار الذي يرمز له الكاتب بـــهول معركة "ارمجدون" والتي تمثل تدمير ونـــهاية العالم.

كما يحرص الكاتب في العنوان أن يضع فكرته الرئيسية تحت عنوان فرعي : مستقبل أديان العالم هل ستستخدم كأداه للعنف أو أداه لصناعة السلام ؟ والكتاب ينطلق من إيمان صاحبه أن عالمنا الذي يشهد تعدداً في الأديان، وتعدداً في الثقافات والذي أصبح عن طريق الاتصالات "كالقرية الواحدة" يتأثر بما يحدث هنا وهناك من حروب أو مشكلات، هذا العالم الجديد يمكن أن تلعب فيه الأديان دوراً قوياً لينعم بالحياة السعيدة من خلال تعاون تلك الأديان على تحقيق ما فيه سعادة الإنسان في مجال الصحة وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية، والحريات الأساسية....الخ.

---

* أستاذ أصول التربية في جامعة المنصورة.

ويتألم الكاتب للفهم الخاطئ للأديان والتي استخدمت كأداه لإثبات الذات ونفي الآخر بل والعدوان عليه. حدث ذلك في معظم الأديان ومازال يحدث حتى الآن. ولكنه لا يقتنع إطلاقاً برد هذه الصراعات إلى أسباب دينية بحتة بل يدعو إلى دراسة جميع أنواع الصراعات والحروب الدينية للكشف عن أسبابـــها الحقيقية الخفية المحركة لها: سواء أكانت أسباباً اقتصادية كالشعور بالغبن الاقتصادي، أم أسباباً اجتماعية (الشعور بالدونية الاجتماعية) أو أسباباً قبلية أو عرقية (الانتماء إلى قبيلة أو عرق) أو أسباباً شخصية تعود إلى المكاسب التي يحققها رجال كل دين من وراء التعصب لأديانـــهم، فضلاً عن سوء التفسير الذي يلحق بالنصوص الدينية ويجعلها تميل إلى العنف دون التسامح ونفي الآخر دون محاولة السمو بالإنسان كل إنسان مهما كان لونه أو جنسه أو دينه. ويشير الكاتب إلى سوء فهم العلمانيين للأديان وما يمكن أن تؤديه في خدمة السلام العالمي وعالمية الحياة الرغدة لبني الإنسان، ويدعو علماء العلوم الإنسانية بجميع فروعها إلى إعادة دراسة الأديان من حيث هي أدوات للإصلاح الأخلاقي في محاولة لاكتشاف تلك العناصر الإيجابية في تلك الأديان وكيف تسهم في صناعة عالمنا الجديد الذي تعيش فيه جميع الأديان في تسامح، وتتعاون مع العلمانين في إيجاد عالم تسود فيه قيم عالمية إنسانية مشتركة. ويؤكد المؤلف أن كل الحروب الدينية كان سببها سوء فهم النصوص الأصلية التي تدعو في رأيه إلى الحب والسلام ويستشهد في ذلك بتفسيرات مختلفة للنصوص اليهودية والمسيحية والإسلامية والتي أسئ فهمها فأثارت الحروب المدمرة خلال تاريخ البشرية الطويل. في نفس الوقت الذي وجد فيه علماء وجماعات يهودية ومسيحية وإسلامية فسرت تلك النصوص تفسيرات أكثر إنسانية وأكثر فهماً لروح الأديان التي تدعو وتركز على إصلاح جوانب الإنسان وسلوكه أكثر من اهتمامها بأي شئ أخر.

ويكثر الكاتب من استدعاء تفسيرات يهودية ومسيحية وإسلامية تدعو إلى السلام والتعاون على الخير، كما يشير أيضاً إلى تفسيرات مقابلة تدعو إلى عكس ذلك تماماً ويفرد لذلك فصولاً من كتابه سواء في اليهودية أم المسيحية أم الإسلام وهي تفسيرات بالفعل تحتاج إلى مزيد من الدراسة، وإن أظهر الكاتب تحيزاً واضحاً لدعوة اليهودية إلى السلام وجعل من نبي الله هارون صانع السلام المثالي اليهودي إذ كان يذهب إلى كل متخاصم ويذكر له مقدار أسف الآخر وحزنه وشعوره بالذنب نحو صديقه ثم يذهب للآخر ويقول

له الكلام نفسه حتى يصلح بينهم. ويرجع العنف اليهودي الحالي إلى ما تعرض له اليهود من اضطهاد وإعدام جماعي في الماضي، وما يتعرضون له حالياً داخل إسرائيل من عمليات فدائية فلسطينية مما لا يسمح لتلك المبادئ اليهودية السامية بالظهور، ومما يقوي الأصولية اليهودية كأداه للحفاظ على الذات.

والكاتب الذي يبرر تلك الأصولية اليهودية ويدعو إلى دراسة غيرها من الاصوليات، ومحاولة نسف ما تحمله تلك الاصوليات من مبادئ تقاوم المبادئ والمثل العالمية التي يدعو إليها كما يقف طويلاً أمام كل حركة دينية وكل جماعة دينية تفسر الأصول تفسيراً عصرياً يقترب من تلك المبادئ والمثل العالمية التي يدعو إليها، ويرى أن السلام العالمي يتحقق من خلال نشر تلك التفسيرات الدينية الأكثر حداثة وعصرية- ولعله يقصد بالدرجة الأولى المسيحية والإسلام- وإن كان للإسلام مساحة أوسع من اهتمام الكاتب وخاصة دعوته إلى الجهاد والتي يحصرها الكاتب في الجهاد المسلح عكس ما هو معروف في كتب الفقه الإسلامي وأصوله. ويلمز تلك الحركات الإسلامية التي تدعو إلى البعث الإسلامي ويحاول أن يرد انتشارها وقوتـــها لأسباب غير دينية : أسباب اقتصادية واجتماعية وشخصية... الخ.

ويبدي الكاتب إعجابه الشديد برجال دين يمثلون القدوة في حياتـــهم من أجل السلام مثل غاندي الذي كان هندوسيا ومع ذلك كان يخدم كل مسيحي ومسلم، وداي لاما في التبت؛ وماهاجوساندا في كمبوديا ومارتن لوثر كينج في الولايات المتحدة والأسقف الأعلى للبوذية الكمبودية : تيتو ويقف طويلاً عند جماعة الينونيت المعاصرين وكيف كانت مسيحيتهم دافعاً لهم إلى أن تحولوا إلى أكبر جماعة تعيش من أجل السلام العالمي في جميع القارات، من خلال الانتقال إلى بؤر الصراع العالمي، ومحاولة الحياة هناك من أجل الفهم العميق لجذور تلك الصراعات والمساهمة في إيجاد حلول جذرية: غالباً اقتصادية، وسياسية، واجتماعية، وشخصية وعرقية ما جعلهم أصحاب تجارب في ميدان حل المشكلات العالمية. ويتساءل الكاتب عن مدى قدرة أسلوب الينونيت على حل المشكلات العالمية في مجتمعات غير مسيحية؟ (استخدم الينونيت بجوار الأساليب العلمانية أساليب روحية مثل الصلوات والدعوات والأناشيد والترانيم الدينية) كما يبدى عدم رضاه الكامل عن ذهابـــهم إلى العراق لرفع المعاناة عن شعب العراق، وتعاطفهم مع

الفلسطينيين في معاناتـــهم ضد الاحتلال ويتساءل أيهما أكثر عدلاً أن يفعلوا ذلك أم يذهبوا إلى الكويت لرؤية جنايات صدام على الشعب الكويتي، ويتعاطفوا مع اليهود لما يتعرضون له من عمليات فدائية مستمرة؟

وفي الفصل الأخير من الكتاب يرى ضرورة تعاون رجال الدين ورجال العلوم الإنسانية من أجل تطوير نظرية مشتركة لحل مشكلات العالم الصعبة (نظرية فض الصراع) والتي تقوم على احترام القيم الدينية المشتركة، بحيث يتفهم العلمانيون الجوانب الإيجابية من الأديان ويتفهم الأصوليون القيم الإنسانية في المجتمع العلماني المتعدد الأديان والأعراق. بحيث يتعاون المجتمع من أجل السلام العالمي. ويعرض كيف يمكن لتلك النظرية: نظرية فض الصراع من خلال حلقات النقاش وورش العمل والتدريب على مهارات فض الصراع واشراك الفرقاء – أطراف الصراع ـ في نشاطات تشبع الحاجات الحقيقية للناس : التعليم، الصحة، الغذاء، السكن...الخ. وإشاعة الحوار بينهم لاكتشاف نقاط الخلاف حتى يمكن إيجاد حلول لها، وتكريم الرموز من أطراف الصراع والتي تعمل على إيجاد حلول سلمية لتلك الصراعات. كيف يمكن لتلك الآليات أن تستخدم لفض الصراعات في العالم سواء على المستوى الإقليمي أم العالمي. ولا يملك القارئ لهذا الفصل إلا أن يقدر ويبارك هذا الحماس وهذا الجهد المبذول في هذا الاتجاه والذي يتطلع إليه الجميع لإيجاد حلول سلمية لتلك المشكلات المستعصية في البوسنة وكوسوفا والتبت وبورما والفليبين ونيكاراجوا وفلسطين. وللأسف فإن الجهد الإسلامي العالمي في هذا الميدان مازال مغيباً رغم ما يملكه الإسلام من قدرة على العطاء في هذا المجال : مجال خدمة السلام العالمي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأخيراً فإنه ورغم أن الكتاب في مجمله دعوة إلى إعادة فهم الأديان من جانب العلمانيين لاكتشاف الجوانب الإيجابية في الأديان، ودعوة إلى إعادة فهم الصراعات الدينية التي حدثت ومازالت تحدث حتى الآن لمعرفة جذورها غير الدينية : وهي أصلاً دنيوية في الغالب، ورغم أن الكاتب يدعو إلى ضرورة الحوار بين جميع الأطراف لإيجاد نوع من الثقة والتفاهم بين البشر ويختم كتابه بتلك العبارة التي تعكس جوهر الفكرة التي يدور عليها الكتاب: بناء الثقة رسالة أخلاقية، هي فن وربما منحة، وهي تتطلب معرفة قوية بالماضي

ورؤية شاملة للمستقبل، وهذا هو أساس جنة عدن المستقبل التي يمكن أن يصل إليها البشر.

أقول رغم اتفاقنا الكامل مع رؤية المؤلف لدور الأديان في صناعة السلام العالمي، إلا أن المؤلف يعلن أنه "علماني"، وأنه يرى أن الأديان يمكن أن تتعاون مع العلمانية من أجل القيم الإنسانية المشتركة. والسؤال الذي يوجه للكاتب : هل تستطيع العلمانية بالفعل بدون الأديان أن ترقى بالإنسانية؟ وأن تقيم المجتمع الإنساني المنشود بحيث يسود الحق والخير والجمال؟ أم أن العلمانية لن تستطيع أن تحقق ذلك إلا من خلال الدين؟ وإذا كان الدين ضرورة : فأي دين؟ ألا تحتاج ذلك إلى علم مقارنة الأديان؟ وإلى حرية الدعوة إلى الدين الذي تراه البشرية أكثر صلاحاً وفلاحاً ؟ ولماذا حرب العلمانية على الأديان؟

الأمر الآخر أن الكاتب الداعية إلى السلام العالمي، وبناء الثقة بين الشعوب والأديان لم يستطيع أن يكتم تحيزه الواضح لليهود خلال صفحات عديد من الكتاب إذ نراه في ص 41 يكاد يتميز غيظاً عندما يسمع فتاة جميلة أمريكية تـــهاجم اليهود كرمز للفساد والإفساد، ويشبهها بـــهتلر ويعجب هل يستطيع حوار الأديان أن يغير من اتجاه مثل هذه الفتاه ؟ كما أنه في موضع آخر يدين الكنيسة بحجة صمتها على "الإبادة الجماعية" التي تعرض لها اليهود، بينما يكاد يرقص طربا لتغيير الكنيسة الكاثوليكية اتجاهاتـــها نحو اليهود بما يمثل 8 مليون مسيحي يغيرون اتجاهاتـــهم نحو اليهود وقطعاً نحن لا يمكن أن نلومه على ذلك طالما أعلن يهوديته بصراحة ووضوح خلال صفحات الكتاب ولكن يبقى السؤال الحقيقي إلى أي حد يستطيع صاحب دين حتى ولو أعلن أنه "علماني" أن يتخلى عن تحيزاته الدينية حتى وهو يمارس أشرف مهنة وهي مهنة صناعة السلام العالمي؟ حتى يمكن أن تكون ممارسة مهنة السلام العالمي مهنة رسالة بالفعل ؟ مهنة إنسانية رفيعة؟ وليس مجرد أداة يمكن أن تتحول في يد الأقوياء – حتى وبدون شعور منهم أحيانا – إلى أداة لقهر الشعوب وفرض إرادة الأقوياء عليهم، باسم " السلام العالمي"؟ أسئلة تحتاج إلى مزيد من الدراسة، ومزيد من التحليل لكل جهود السلام المبذولة حتى الآن لمعرفة آلياتـــها، ومدى كفاءة تلك الآليات، ومدى براءتـــها، ومدى فاعليتها. وإن كان هذا كله لا يقلل من جدوى مثل هذا الجهد المبذول، ولا من أهمية هذا الكتاب، وضرورة قراءته وذيوعه وانتشاره.